الاستشراق الإسباني : ماله وما عليه

د. جمعة شيخة [1]

أودّ بادئ ذي بدء أن أستعرض معكم بعض المصطلحات التي استعملت منذ قرون للتّدليل على صنف من الباحثين قاموا بدراسات موضوعها الشّرق عامةً والتّراث العربي الإسلامي وحضارته بصفة خاصّة. وقد وجدت أربعة مصطلحات :

1 - المستعربون : اسم فاعل من الفعل المزيد "استعرب" ويطلق على غير العربي ممّن يدرس اللّغة العربية ويتقنها، وله اهتمام بما كتب بها من تراث فيطلبه ويدرسه ويختصّ فيه.

وقد أطلق هذا المصطلح أوّل ما أطلق على صنف من المجتمع الأندلسي، وهم السّكان الأصليّون الذين أصبحوا يتكلّمون العربية ويعيشون تقريبًا حسب تقاليد العرب في مأكلهم وملبسهم، ولكنّهم بقوا متمسّكين بدينهم سواء أكانوا نصارى أم يهوداً.

(1) أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.

ثم أعيد إطلاق هذا المصطلح على العلماء الإسبان ممّن اهتمّوا بالحضارة العربيّة الإسلاميّة داخل شبه الجزيرة الإيبيريّة وخارجها بعد انقراض دولة الإسلام بالأندلس إلى اليوم.

ويميل بعض الباحثين المغاربة الأجلاّء كالأستاذين محمد بن شريفة، ومصطفى الغديري إلى تفضيل هذا المصطلح على مصطلح "مستشرق" [2]، بل إنّ بعض الباحثين الإسبان المعاصرين كالأستاذين فريدريكو أريوس [3]، وبيدرومونتابث [4]، يحبّذون إطلاق إسم "مستعرب"... عليهم لأنّ أغلبهم لا يدرسون تراثا شرقيّا، وإنّما يدرسون تراثا نشأ وترعرع في بلادهم وإن كانت جذوره تنتمي إلى الشّرق.

2 - **المستشرقون :** اسم فاعل من الفعل المزيد "استشرق" ويطلق هذا المصطلح على علماء الغرب من غير العرب، مسلمين أو غير مسلمين، ممّن اشتغل بالبحث في الحضارات الشّرقية عامّة، والحضارة الإسلامية بصفة خاصة تحقيقا للتراث ودراسة له، وفي منطقة جغرافية تمتدّ من شمال إفريقيا إلى الهند والصّين، مرورا بالشّرق الأوسط بما فيه من بلدان عربيّة وإسلامية.

وقام بالتّحقيق والدّراسة في المقام الأوّل أكادميّون من علماء وباحثين في اختصاصات شتّى، وفي مقام ثان غير الأكادميّين من رجال الدّين ورحّالة وكتّاب. وفي مقام ثالث هناك موظّفون من رجال الجيش والمخابرات والمغامرين.

(2) الغديري مصطفى : الحركة الاستعرابية الاسبانية في مجلة "دراسات أندلسية" عدد 2003/29 ص 25.

(3) انظر الحوار معه في جريدة "العلم" المغربيّة" 1996/11/26.

(4) انظر الحوار معه في جريدة "العلم" المغربيّة" 1996/11/27.

وقد ظهر هذا المصطلح أوّل ما ظهر في إنقلترا سنة 1123 م / 1711 م ثم في فرنسا 1214 هـ / 1799 م [5].

3 - **مستأندلسي** : وهو مصطلح صاغه الأستاذ الكبير والمستشرق الإسباني القدير ميكال دي ابلزا (جامعة إليكانت). من كلمة أندلس، وأطلقه على العلماء الإسبان المهتمّين بالتّراث العربي الأندلسي. ورغم دقّة هذا المصطلح لم يلق رواجًا في الوسط الأكاديمي الجامعي لسبب بسيط هو أنّ العلماء الإسبان لئن تخصّصوا في تراث بلادهم، هم من المهتمّين كذلك بكامل التراث العربي الإسلامي.

4 - **المتأفرقون** : اسم فاعل مشتق من اسم إفريقيا. وأطلق على المستشرقين الإسبان ممن قاموا بدراسات على أوضاع شمال إفريقيا عامة، والمنطقة الغربية منه بصفة خاصّة لمساعدة القوات الاستعمارية الإسبانية في هذه المنطقة. وكان أغلبهم من العسكريين وموظّفي الإدارة. وهذا الصنف لم يكن له حضور متميز داخل الجامعة حسب المستعرب بيدرو مونتابث، لكن هذا لم يمنع كبار المستشرقين من التعاطف معهم ومساعدتهم [6].

وفي أوروبا أطلق مصطلح "مستشرق" على مختصّين في دراسة اللّغات والثقافات الشرقية قديما وحديثا لتمييزه عن مصطلح "كلاسيكي" وهو مصطلح أطلق على المختص في اللغتين والثقافتين اللآتينية واليونانيّة.

ويقابل هذه المصطلحات الأربعة مصطلح "مستغرب" من فعل "استغرب" المزيد الدّال على الطلب مثل الأفعال المزيدة السّابقة. وقد أطلق

(5) E.I. ط II، مقال "مستشرقون" كتبه ج د ج وارنبورغ، VII، ص 736.

(6) انظر: ت 2، ص 41 - 43.

هذا المصطلح على علماء الشرق عامّة والعرب والمسلمين بصفة خاصّة ممّن لهم اختصاص في تراث الغرب وحضارته. ولا يخلو هذا المصطلح من استنقاص وتهجين، لأنّ صنفا ممّن أطلق عليهم لم يكتفوا بالميل إلى تراث الغرب والاختصاص فيه، بل اعتنقوا مذاهبه وإيديولوجيّاته ممّا جعلهم يقفون مواقف قد تكون معادية لأهلهم وأوطانهم أو هكذا يؤوّلها بعض أهل الشرق.

وتولّد عن مصطلحي"مستشرق" و"مستغرب" مصطلحان آخران وهما "شرق" و"غرب" متضادان على أصعدة مختلفة : وهما يشيران سياسيّا وعسكريّا إلى النّزاع بين الفرس (شرق) واليونان (غرب) في القديم. وهو نزاع أدّى إلى استيلاء الجيوش اليونانيّة بقيادة إسكندر المقدوني على كامل منطقة الشّرق الأوسط في مرحلة أولى، ثمّ حلّ محلّهم الرّومان في مرحلة ثانية. كما يشيران إلى الصّراع بين الإسلام والمسيحيّة في القرون الوسطى. وقد أدّى هذا الصّراع إلى اتّساع دولة الإسلام مع العرب غربًا إلى جنوب إيطاليا وفرنسا مع اكتساح شمال إفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيريّة.

وجاء ردّ الفعل المسيحي مع حركة الاسترداد المسيحيّة في الأندلس والغزو النورماندي لصقليّة والحروب الصّليبية في الشرق.

ويشير هذان المصطلحان "شرق/غرب" إلى الاصطدام بين الخلافة العثمانيّة والدّول الأوروبيّة في العصور الحديثة وتجلّى ذلك في اتّساع رقعةِ الإسلام مع الأتراك إلى قلب أوروبا، وأحواز فيينا، ثمّ تراجع أمام تفاقم القوّة العسكريّة لأوروبا وخاصّة مع حملة بونابرت على مصر في أواخر القرن 12 هـ / 18 م وبداية الاستعمار الحديث.

ويشير المصطلحان أساسا إلى الفروق اللّغويّة والعقليّة والثقافية والحضاريّة، وأسلوب التفكير ونوعية العلوم المدروسة بين شعوب الغرب

عامّة وأوروبا بصفة خاصّة وشعوب الشرق عامّة، والعالم الإسلامي بصفة خاصّة إلى نهاية القرن 13 هـ / 19 م.

وأصبحت الكلمتان في نهاية الحرب العالمية الثانية تدلاّن على إيديولوجيتين أساسيتين هما الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية "الشرق" من جهة، واالولايات المتّحدة ودول حلف شمالي الأطلسي "الغرب" من جهة أخرى، وبسقوط الاتحاد السّوفياتي وانحلال الجبهة الاشتراكية في نهاية القرن 14 هـ / 20 م عاد المصطلحان بسبب التعصّب والغطرسة، إلى ما كان عليه سابقا من صراع بين حضارتين وديانتين وعقليّتين: إسلاميّة ضعيفة ومتخلّفة، ومسيحيّة متقدّمة وقويّة.

هذا من حيث المصطلح وتسميته. أمّا من حيث البدء والنشأة، فإنّ الاستشراق عامّة والإسباني منه بصفة خاصّة نشأ في رحم الكنيسة الكاتوليكيّة بأديرتها ومدارسها وبين رهبانها وقساوستها. وقد مرّ هذا الاستشراق الإسباني بمراحل تاريخيّة متتالية تؤدّي الواحدة إلى الأخرى دون أن تنفصم عرى المرحلة الموالية عن سابقتها.

أ - كانت المرحلة الأولى مرحلة الانبهار والإعجاب في القرنين 4 هـ - 5 هـ / 10 م - 11 م عندما وصلت الحضارة الأندلسية بقرطبة وغيرها من القواعد الأندلسيّة في شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الأوج. وتولّد عن هذه المرحلة الأولى مرحلة ثانية هي مرحلة الاستفادة من مختلف فروع هذه الحضارة وذلك بما كان يقوم به رجال الاستعراب في مراكز عدّة بُعثت قبل مدرسة الترجمة بطليطلة وبعدها على مدى قرنين 6 هـ - 7 هـ / 12 م - 13 م. وجاءت المرحلة الثّالثة نتيجة للمرحلتين الأولى والثّانية. فالإعجاب والاستفادة ولّدا موقفا معيّنا من المسلمين وحضارتهم لا يخلو من خوف وكره، فكان لا بدّ من مقاومتهم

باحتوائهم عن طريق الجدل الدّيني والتّبشير داخل الجزيرة الإيبيريّة وخاصّة في المناطق التي استرجعها النّصارى وبقي فيها المسلمون يعيشون تحت الحكم النّصراني خلال قرنين 8 هـ 9 هـ / 14م - 15 م.

ب - أمّا المرحلة الرّابعة فمثلت تطوّرا سلبيّا في حركة الاستشراق الإسباني : فقد أصبح الخوف حقدًا والكراهية تشويها لكلّ ما يتعلق بالإسلام دينا وحضارة وذلك خلال القرنين 10 هـ - 11هـ / 16 م - 17 م. وهذه المرحلة لا يجوز لنا رفضها بقدرما يجب علينا فهمها وتفسيرها : فالإسلام ما إن انحصر من أوروبا غربًا حتّى زحفت جحافله بعد حوالي قرن من فشل الحروب الصليبية بالمشرق على أوروبا شرقا مع الجيش العثماني ؛ وهكذا مثّل الإسلام مع الأتراك كابوسا مزعجا للكنيسة، وخاصة بعد سقوط القسطنطينيّة في منتصف القرن 9 هـ / 15 م ووصول القوات العثمانية إلى أحواز فيينا.

إنّ هذه المرحلة تمثّل الحلقة الحديديّة في سلسلة الاستشراق الإسباني الذّهبية، والغصن الذي يبس وجفّ بيخضوره في شجرة الاستشراق الإسباني الوارقة الضلال.

إنّ هذا الموقف لا يمنعنا من القول: إنّ اسبانيا، لئن رفضت في هذه الفترة تراث العرب ومنعته من الدخول في تاريخها علانيّة، فقد تسلّل خفية من النافذة، وطبع الأدب الإسباني في القرنين : 10 هـ - 11 هـ /16 م - 17 م بطابعه المتميّز أسلوبا وعبارة، شخصيات ومواقف. وقديما قيل كل شئ بلغ إلى حد (أقصاه) انقلب إلى ضدّه. فقد ولد الاستشراق الإسباني من جديد خلال القرن 12 هـ - 18 م بمفهومه الأقرب إلى الموضوعيّة العلميّة والنّزاهة الأخلاقيّة. ولئن لم يتخلّ عن أمّه "الحركة التبشيرية" وعن أبيه "الاستعمار" فقد أصبح التبشير والأطماع

الاستعمارية خارج شبه الجزيرة الإيبيرية باعتبار أنّ النصرانية توطّدت واكتملت حلقات حركة الاسترداد في كامل ربوع إسبانيا بعد سقوط غرناطة أوّلا في نهاية القرن 9 هـ / 15 م، وبعد طرد الموريسكيّين ثانيا في بداية القرن 11 هـ / 17 م.

وتواصل الاستشراق الأوروبي والاستشراق الإسباني جزء منه- لصيق أبويه (الحركة التبشيرية والاستعمار) في القرن 13 هـ / 19 م، بل زادت العلاقة بينهما توطّدا. وتميز الاستشراق الإسباني بالانتشار في جلّ كلّيات الآداب بالجامعات الإسبانية في نطاق أقسام الدّراسات السّامية وفي مراكز البحث القديمة أو التي أنشئت حديثا في أغلب المدن الكبرى، وخاصة تلك التي عرفت أوج الحضارة الأندلسية في القرون الوسطى. واشترك الاستشراق الإسباني مع الاستشراق الأوروبّي في أنّ أغلب علمائه كانوا من رجال الدين، لكنه انفرد بميزة خاصة به وهو أنّ المستشرقين الإسبان لم يكونوا في تخصّصهم يدرّسون تراث شرق بعيد عنهم مختلف عن شخصيتهم وهويتهم، وإنّما كانوا يدرسون تراثهم وتاريخ بلادهم لفترة امتدت حوالي 8 قرون. فهم بذلك الأقدر على فهم هذا التراث والأجدر بدراسته والتعريف به. إنّ دراسات المستشرقين الإسبان لم تكن قائمة على الفرض والتخمين بقدر ما كانت قائمة على الآثار الباقية في بلادهم والمخطوطات المحفوظة بمكتباتهم، متّبعين في ذلك منهجًا علميًا ورثوه عن أجدادهم من العرب وغيرهم.

وهم، لئن كانوا يدرّسون تراث الأندلس في مجمل فروعه، فقد كان منهم من تخصّص في جانب واحد منه دون نسيان أو إهمال للنّهضة العربيّة الحديثة والأدب العربي المعاصر.

ومنذ القرن 4 هـ - 10 م إلى القرن 14 هـ / 20 م وخاصّة القرنين الأخيرين بدت الأندلس من خلال الاستشراق الإسباني في صورتين :

الصورة الأولى :

برزت هذه الصورة منذ أن توحّدت إسبانيا بعد سقوط غرناطة في نهاية القرن 9 هـ / 15 م فقد اعترف الاستشراق الإسباني بالفترة الإسلامية الطويلة نسبيا باعتبارها جزءا من تاريخ إسبانيا لا يمكن إنكارها. لكن هذه الفترة في نظر بعض المستشرقين المُغرضين يجب أن يمحى أثرها من الذاكرة الجماعية أو على الأقل تبقى عالقة بالأذهان لتكون موضوع رفض بات (7). ولئن تواصلت هذه الصورة إلى نهاية القرن 11 هـ / 17 م، فقد استرجع الاستشراق الإسباني أنفاسه منذ القرن 12 هـ / 18 م بفهرسة مخطوطات الأسكريال.

ومنذ القرن 13 هـ / 19 م بدأ الاهتمام بالتّاريخ الأندلسي مع المستشرقين الجليلين كوديرا (8) وروبيرا (9). ووجد هذان العالمان عنتا ورفضا لفرض التاريخ الأندلسي على أنّه جزء من تاريخ إسبانيا.

ولم ير المعارضون لهما في هذا التاريخ إلاّ مفاجأة قاسية في بدايته، مضطربة في وسطه، عنيفة في نهايته، وقد أدّت هذه الفترة في نظرهم إلى عزل إسبانيا عن محيطها الأوروبي، وأوقفت توجّه الحضارة الإسبانيّة الرومانيّة الطّبيعي نحو الأنماط التي اكتسبتها بقية دول القارة

(7) مانويلا مورينا : الأندلس والأندلسيون، تعريب حمّادي السّاحلي. ط ا ، تونس، 2001 ، ص 57 - 66.

(8) جمعة شيخة : القيم والخصال في شجرة الاستشراق الإسباني الوارفة الظّلال،طا ، الكويت، 2004، ص 80.

الأوروبية خلال العصر الوسيط .... ووصل بعضهم إلى اعتبار أنّ كلّ ما هو سلبي في حياة المجتمع الإسباني وثقافته في العصر الوسيط هو من أثر الإرث الإسلامي. كان على رأس هذا الاتّجاه المستشرق سيمونيت في القرن 13 هـ / 19 م وعبّر عن وجهة نظره بكل وضوح، وسايره في ذلك وبطريقة خفية وملتوية الأستاذ الكبير والمترجم القديرغارسية عومث في القرن 14 هـ / 20 م [10].

وللحدّ من هذه المعارضة القويّة، عمد المستشرقون الجامعيّون بداية من القرن 13 هـ / 9 1 م إلى إضفاء الصيغة الإسبانية على الأندلس، فبرزت فكرة "وجود أندلس مؤتمنة على القيم الإسبانية" [11]. وهي قيم أخفتها طبقة رقيقة من حضارة إسلامية هشّة خلال ثمانية قرون، فيكفي إزاحة هذه الطبقة السّطحيّة حتّى تبدو الهياكل العميقة للحضارة الإسبانية الرومانية القوطيّة.

وهذا التوجّه لئن كان عند بعض المستشرقين النّزهاء تعلّة لإدراج التاريخ الأندلسي ضمن التاريخ الإسباني، فقد استغلّه "بعضهم عن قصد للبحث عن أصل مسيحيّ لكلّ ما هو إيجابي في الحضارة الأندلسية: فالعلوم طوّرها في الأندلس مستعربون مسيحيون، ولا دور للمسلمين فيها، والموشحات والأرجال أصلهما لاتيني روماني، والحبّ العذري والعفة والطهارة من أصل مسيحي إلخ.... وهكذا أصبحت الأندلس الإسلامية "إسبانيا الإسلامية" عند المستشرق الجليل أسين بلاثيوس [12].

(10) نفس المرجع، ص 102،

(11) الأندلس والأندلسيون، ص 57 - 66.

(12) القيم والخصال ، ص 88.

وقد عمل هو وبعض تلاميذه من بعده على تنصير الإسلام الأندلسي أو أسبنّة الأندلس، وذلك لاكتساب شرعيّة دراسة تاريخ الأندلس وإدماجه في تاريخ إسبانيا.

الصّورة الثانية :

وهي أقرب إلى الواقع التاريخي من الصّورة الأولى : لقد برزت الأندلس من خلال الاستشراق الإسباني في صورة جذّابة. وهي لئن لم تتنكّر إلى أصولها الرّومانية القوطية، فقد ركّزت على إيجابيات الفترة العربية بما فيها من ثقافة مزدهرة وحضارة متألقة بكتّابها وشعرائها، بفلاسفتها وعلمائها، بأطبّائها ومتصوّفيها. وهي ثقافة وحضارة جعلتا العدوّة الأندلسيّة تفتخر على العدّوة الإفريقية بهما [13].

إنّ الأندلس بصورتها الثانية أصبحت تمثّل في الاستشراق الإسباني تراثا أصيلا نبع من مجتمع متسامح عاش فيه - بكلّ احترام - أصحاب ديانات سماوية ثلاث. وهي صورة يمكن أن تكون لحاضرنا - اليوم - المتأزّم نموذجا يُقتدى به للتخلّص من كثير من أدران النفس البشرية. إنّ الأندلس بثقافاتها المتعدّدة كانت تحترم فيها ذاتية الآخر وتتفتّح عليه وتتسامح معه، ولا تنكر مواهبه وقدراته، بل تُمكّنه من الرقيّ في مدارج العلم والإدارة حسب كفاءته.

إنّها صورة في الاستشراق الإسباني جعلت من الأندلس جنّة أرضيّة يحلو العيش فيها ويطيب بنسائها الجميلات وحدائقها الغنّاء، وطبخها اللذيذ، وملابسها الزّاهية، وحليّها الرّائع ومعمارها الرّفيع، وموسيقاها المطربة. فكان لهذه الصّورة من التأثيرما جعل الأبناء والأحفاد يقلّدون

(13) الأندلس والأندلسيّون، ص 57 - 66.

الآباء والأجداد في مطاعمهم وملابسهم، في معاملتهم وتقاليدهم، بل في إبداعاتهم الأدبيّة في مناطق عدّة من إسبانيا، وخاصّة المناطق الجنوبيّة حيث طالت فترة الوجود العربي الإسلامي بها. ومازالت حضارة هذه الفترة على الوجوه جمالا أخّاذا، وفي الأنهج معمارا جذابا، وفي المعاملات أريحيّة عربية إسلاميّة.

وليس من باب التّنويه المبالغ فيه أن رأى بعض المستشرقين الإسبان في هذه الفترة العربيّة الإسلاميّة بالأندلس فترة هامّة لم تخدم التطوّر الحضاري في إسبانيا فقط، وإنّما كانت، بما ترجم من علوم العرب وخاصة مناهجهم في البحث العلمي سببا رئيسا في نهضة أوروبا. أمّا التخلف الإسباني منذ القرون الوسطى إلى القرن 13 هـ / 19 م، فيرجع هؤلاء الباحثون النزهاء أهمّ أسبابه إلى علميّة طرد الموريسكيين اللاّإنسانيّة من وطنهم ممّا أحدث فراغا حضاريا عجزت إسبانيا عن إيجاد بديل له بالسرعة المطلوبة.

لئن ملأت الصورة الأولى نفوسنا حسرة وألما، وأفعمت الصّورة الثانية قلوبنا بهجة ومسرّة، فإنّه يتحتّم علينا أن نتخلّص من المجال العاطفي لننظرإلى الاستشراق الأوروبي بصفة عامّة والإسباني بصفة خاصة على أنّه مثال يحتذى بما قام به أصحابه من جمع لتراثنا فحفظوه وحقّقوه ودرسوه فأبرزوا للعالم الحضارة الإسلامية في أجلي صورة وأروعها. وهم بأعمالهم وفروا لنا وقتا ثمينا ببحوث لم ننتبه للقيام بها: فالمعجم المفهرس للألفاظ، القرآن لفلوجيل، والمعجم المفهرس للحديث النبوي لفنسنك، ومقالات دائرة المعارف الإسلامية، قدّمت خدمات جليلة لكل باحث عربي أو غيره في الدراسات القرآنية والسّيرة النّبوية والحضارة الإسلاميّة وأربحتهم وقتا لا يُقدّر بثمن.

وكما فعلت أوروبا في القرون الوسطى، عندما ترجمت علوم العرب، واقتبست منهجية البحث العلمي من بحوثهم، يجب أن ننحو منحى المستشرقين النّزهاء ونتّبع سلوكهم ونستمع إلى ما قاله طه حسين فيهم في مقدّمة كتابه "في الأدب الجاهلي" "كيف نتصورأستاذا للأدب العربي لا يلمّ ولا ينتظر أن يلمّ بما انتهى إليه الفرنج (المستشرقون) من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشّرق وأدبه ولغاته المختلفة، وإنّما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء النّاس، ولا بد من التماسه عندهم، حتى يتسنّى لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا، ونستردّ ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا" (14).

كما يجب أن نحذّر من بعض المواقف الّتي تضع كلّ المستشرقين في سلّة واحدة كما فعل أحمد فارس الشدياق في قوله : "إنّ هؤلاء الأساتيذ (المستشرقين) لم يأخذوا العلم عن شيوخه وإنّما تطفلوا عليه تطفّلا، وتوثّبوا فيه توثّبا، ومن تخرّج فيه بشئ فإنّما تخرّج على القسس ثمّ أدخل رأسه في أضغاث أحلام، أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه، وتوهّم أنّه يعرف شيئا وهو يجهله. وكلّ منهم إذا درس إحدى لغات الشّرق أو ترجم شيئا منها نراه يخبط فيها خبط عشواء، فما اشتبه عليه رقّعه من عنده بما شاء، وما كان بين الشبهة حدس فيه وخمّن فرجّح منه المرجوح وفضّل المفضول" (15).

صحيح أنّ بعض المستشرقين ينطلق من مواقف فيها كثيرمن التحيّز، صحيح أنّ بعضهم قد يضع فرضيّة شخصيّة ويحاول أن يجد لها الحجج لتدعيمها ولو كانت فرضيّة غير واقعيّة وأحيانا غيرمنطقيّة. وقد ينطلق من فكرة جزئيّة يستخرج منها قاعدة كليّة، وهذا مخالف لمنجيّة البحث

(14) (15) السباعي مصطفى: الاستشراق والمستشرقون ط القاهرة، 1998 ، ص 8.

العلمي، ومع ذلك لا نذهب إلى ما ذهب إليه الشدياق لأنّ قولته قد تنطبق على بعض المستشرقين المتحيزين وخاصة في القرون الوسطى، لكنّها بعيدة كلّ البعد عن حقيقة الاستشراق وخاصّة في القرنين 13 هـ - 14 هـ / 19 م - 20 م. فالمستشرقون أو على الأقل بعضهم أساتذة جامعيّون لهم تكوين متين ومنهج رصين، وأسلوب في البحث وخاصّة النّقد التّاريخي والحضاري يظلّ الأسلوب السّليم الذي يجدر بنا احتذاؤه واتّباعه.

وبصفة عامّة لسنا في حاجة اليوم، ونحن في منتصف الألفية الثانية لهجرة محمد نبي الهدى وبداية الألفيّة الثالثة لميلاد عيسى رسول المحبّة، أن نكتب (في وعن) الاستشراق بنفوس بالحقد طافحة، وعقول بالغطرسة جامحة، دون ضمائر لهذه النزوة وذاك الهوى كابحة، لأنّ الكتابة (في وعن) الاستشراق انطلاقا من إيديولوجيّة مرسومة وعقيدة دينيّة ثابتة هو ضرب من صبّ البنزين على نار تلتهب، ولأنّ الكتابة (في وعن) الاستشراق بقلم يشبه معولا هو هدم لجسر متداع سلفا، سيسقط ختما بمن عليه في واد عميق من التعصّب المقيت.

نعم، إنّ الكتابة (في وعن) الاستشراق بعين واحدة لا ترى إلاّ المساوئ هو قطع الطّريق أمامنا لكلّ استفادة من مرتع خصيب، وتذوّق الاستشراق بلسانٍ عليل وفم مريض هو حرمان لنا من ماء زلال في يوم قيظ شديدٍ.

لسنا في حاجة عندما نكتب (في وعن) الاستشراق لتمجيد في العقول مرفوض ولا لتنديد في النفوس ممجوج، ولا لتحامل في الضّمير منبوذ.

المستشرقون في المطلق ليسوا ملائكة ولا هم شياطين. لذا لا يجوز أن نتعامل معهم بنفس الأسلوب وبنفس المنطلق وبنفس الطّريقة.